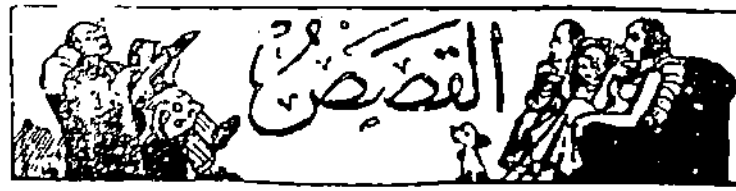

السكيرة

القصصي الفرنسي جي دي موباسان

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم « ماكلوار » تحمل المعلم « شيكو » خمار « دي به فيل » وهو رجل في العقد الرابع خشن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين سمين ، على وجهه سيما الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها بخشبة معترضة ومشى إلى ساحة الدار

كانت الأم « ماكلوار » تملك أرضاً تجاور مزرعته ، طالما تشوفت نفسه إلى ابتياعها منها ، وشمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من المجوز عنيد وتصاب شديد . وكانت تقول :

— إني ولدت في هذه الأرض ، وستجنني تربتها ...

في هذا الصباح ألفى المجوز ، وهي درديس في الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها معنية بتقشير « البطاطس » كانت منكمشة الجلد ، جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها في ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها في دعابة ثم قال

— وصحتك أيتها الأم ، هل هي جيدة وأبداً جيدة ؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هانئاً راضياً

— جد مليح . ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها في حذق ومهارة ، بين أصابع يابسة عقداء مخروقة ، تشبه أرجل السراطين ، وفي يدها اليمنى سكين عتيقة مغثلة لا تكاد تقطع الجبن

وحين فرغت من البطاطس ، وضعت لماعة صفراء ، ألقت بها في قدر مملوءة ماء . فإذا دجيجات وأفرخ تسعى إليها ناقة مقوقئة ، ثم تختلس ما تبقى في حجرها من قشور البطاطس ، وتتراكض في خبث عنها وفي منقار كل منها ما غنمت من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر في سأم وضيق وفي نفسه أمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد في انتزاعه ، وأخيراً وفق فقال

— ألا خبريني أيتها الأم « ماكلوار »

— وما عساي أخبرك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيعي مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم « شيكو » فلم إقلاقي به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل ؟

— ولكني يا سيدتي وجدت حلا المسألة إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقته غير آسف ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيعيني أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت على قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضا ؟

فشغلت المجوز عن تقشير البطاطس ، ورأحت ترمي الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلقين أجمدين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن ترضي بهذه الصفقة تتسلمي في منتهي كل شهر مائة وخمسين فرنكا أحملها إليك في عربتي . أتقدرين قولي ؟ أتفقهين حديثي ؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل لك حال ، ولا تتغير حياة ؛ فستظلين في حقلك آمنة السرب رافهة العيش لا يدينك أحد ولا تدينين لأحد ، ولا تعملين أمراً ، ولا تنصبين نفسك لعمل . إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكا ، مطلع كل شهر ، عملا شاقا يكد وينصب . قال هذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشرا وعلى وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة ... والمجوز تلحظه حذرة متيقظة . وقد كبر في وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة . على أنها سألته في خبث :

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوي عليه همزة المجوز

لا أتمثل عليك يا سيدتي في شأن الأرض ، فلسوف تتناول خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة . غير أني

أرجوك أن تكتبي لي صكا شرعيا ، يخولني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل إن شاء الله . والبتة المرأة وهي تصغي لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراما ولا نقضا ، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضا ، وأخيرا قالت :

إنه لا يسعني رفض اقتراحك ، فلو أنظرتني أسبوعا آخر أتبصر أمري وأروي رأيي . فأطاع المعلم « شيكو » ثم غادر الأم فرحا فخورا ، كأنه الملك الجبار ، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار ... أما الأم « ماكاوار » فقد أمضت أيامها ساهمة حالمة ، لا يستقر جنبها على مضجع ، ولا يزور جفنها سنة من نوم . ثم استشرت بها حمى التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام ، لولا أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة ، التي توشك أن تتدحرج في حجرها مطلع كل شهر ، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة

وأرادت أن تضع لترددها حدا ، فمضت إلى الموثق الشرعي تفوض له جملة حالها وتستنصحه في أمرها . فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضا بحل المعلم « شيكو » ، ولكنه اشترط عليها لذلك ، أن يضاعف لها الراتب فيجعله ثلثمائة بدلا من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوي في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك ، ثم قال لها في أضعاف حديثه :

— لئن عمرت خمسة عشر عاما ، فلن ترزئي صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك — فاستقلت جسم المجوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنك التي سوف تحظى بها رأس كل شهر ولكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر ، تنوشها الهواجس ، وتقوزعها الوساوس فهي تتوقع حينا مفاجأة مفجعة وآنا مكيدة مستورة ، لا تبصرها ولكنها تحسها ، ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل ، وتواجه المقترح من كل جهة . ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي

وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيها ويستعلم غرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائي ، بلزوم رفع مرتبها الشهري ، وحين رأت هزة الإخفاق تركب أوصاله ، ونار الغيظ تحتدم في عينيه ، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه ، أظهرته على قائمة السنين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت :

— إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى مرعى الأمنندة إلى الأذرع ، أو محمولة على الظهور

ومهما يمتد بي خيط الحرم ، فإنه كخيط العنكبوت وشيك الانبتات سريع الانقطاع . وهل بعد الثلاثة والسبعين عاما التي توفر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر ؟ وقاطعها المعلم مغيظا فقال .

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتي أن تصطنعي العجز وتتظاهري بانقطاع المنة . ثق أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في أقل تقدير ، وإني أراهن على أنك أنت التي ستتولين دفني ، فما هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد ، وجهد المعلم « شيكو » الجهد كله ليقنع المجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل . وحين لم يجد مندوحة من إجابتها رضي مكرها بدفع الثلاثمائة فرنك ... وغبرت سنين ثلاث وصاحبتنا المجوز كالسرو العتيقة لا يزيدها الرزق إلا صلابة وجلداً على الأيام ، حتى يئس المعلم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد ، وأن صفقته كانت هي الخاسرة المغبونة ، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الإفلاس إن ظلت معاهدة الصداقة والود بين المجوز وعزرائيل متينة العرى

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة ، أو الاستفسار عن موعد الحصاد ؛ فكانت تستقبله في خبث ، وفي قلبها الشماتة والتشفي ، وفي معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلي الذي لعبته على مسرح بلاهته وغفلته . فكان يرتد مريعاً إلى عربته ويجمجم :

— وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت ؟ فلم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لمقدة أزمته فكاكا . فكانت تمر به ساعات يود فيها لو أهوى على عنق المجوز فخنقه ، وروحها فأزهقه ، مما في نفسه منها من الغيظ والحنق والوجدة ، وظل زمناً يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طامة المجوز المشؤومة . وأخيراً ظفر بما يرجو ؛ فقد عليها يوماً يطفر من البشر والسعادة ويصفق بيديه من الفرح والمرح ، وبعد أن ناقلها برهة حديث المجاملة والود قال :

— ألا تقولي لي أيتها الأم ماكاوار فيم امتناعك عن زيارة

منزلى حين مرورك على حانة « إيدى فيل » ؟ إن الحديث فيه ليلذ ويمتع ، وأنا هناك يا للأسف مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من القريب ، لا يؤنس وحشتى زائر ، ولا يمر على عابر . فزوريني إن تكرمت وكلى ما طاب لك فلست مرزئك مالا ولا مكلفك دفع طعام أو شراب . زوريني فى زيارتك تشيع البهجة فى قلبى وينتشر السرور فى دارى

وفى الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ، فراحت إليه فى عربتها ، والشمس لم تغادر خدرها الوردى ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة فى الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الفداء الموعود

لم يكد يصدق عينيه المعلم شيكو ، وراح ينشط فى خدمتها ويجتهد فى مرضاتها ، كأن أمامه سيدة نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفنن فى تقديم فاخر الأطعمة والآكال وغريض اللحم ، من الطير المبهر ، والدجاج المحمر ، ولحم الخنزير المشوى ، وأصناف من الخضار والفواكه والتوابل ، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها المعجوز التى اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ، أو قطع الخبز المغموسة بالزبد ، وألح الرجل وعزم عليها . ولكنها لم تأكل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت من تناولها . وأخيراً قال لها وهو يناولها قدحاً من « الكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القدح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أقول لا . فرجت أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . اعلى لنا كل فاخر معتق من الكونياك . وظهرت الخادمة تقدم إلى صدرها زجاجة طويلة محشوقة ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر . فتناولها المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين ، ثم ناول المعجوز أحدهما . قائلا :

— إنه لكنياك لذيذ شهير ، أفلا تتذوقينه ياسيدتى ؟

فتناولته الأم « ماكاوار » شاكرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات ، وما أن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً ، فأعرضت عنه أولا ثم أكرها المضيف بالقول اللاطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة . وكان عازما على إرداقه بثالث ورابع لولا أن عاقته برفضها وامتناعها

— ولكن هذا يا سيدتى ليس خمراً ؛ إن هو إلا حليب مصفى ، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن يتعفنى السكر أو تذهب بوقارى النشوة ، لا يكاد يستقر فى الجوف كالسكر المذاب حتى يتبخر فى الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس كمثله شئ لصحة الجسم وابتعاث النشاط . فدعا ذلك المعجوز إلى أن اجترعت نصف الكأس الثالثة ، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شعرت بفعل السكر بأطرافها ، وتلهاب الخمر بأعطافها . فأهرعت إلى عربتها ومضت ... وغدا عليها صاحبنا فى عربته ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة برميلا صغيرا ، فيه خمر الأمس ، ثم جلسا يعيدان سيرة البارحة ، وما استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، فادرها المعلم قائلا :

— ماأرانى بحاجة لأقول لك إن الخمر التى أبقيتها لك تكفيك مدة ، فإذا فرغت منها فمندى لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به ، وكلما ألححت فى الطلب ألح على السرور وطبت نفساً . .

وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب منتظرة بتقطيع الخبز الذى تعده للحساء ، فاقترب منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، ففتحته منها رائحة « الكحول » وملأت خياشيمه ، هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين إلى قدحاً من الكونياك ... ؟ وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما نخب صاحبه ... ولم يطل الأمر بالأم « ماكاوار » حتى شاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخلية لنفسها وفى الحق كان الجيران يلقونها إما مستلقية أمام مطبخها أو ساحة دارها لا تعى ، أو منطرحة فى الطرق والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثة لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يعد المعلم شيكو يتردد على بيتها ، فكان يقول للجيرة رائيا :

— إنه لما يبعث الأسى أن تدمن هذه المعجوز الشراب وهى فى أرذل العمر ، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقب سكرة إنكليزية أبلت فيها البلاء الحسن وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك ، فكان يقول :

— لو لم تتلف هذه المعجوز الباهاء صحتها بسموم الخمر ، لعاشت عشرين سنين أخر !

ك . م

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الأول من كتاب

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

تسيير عربة ديزل من الاسكندرية ومرسي مطروح

ابتداء من ٢١ يونيو سنة ١٩٥٢

ستسير عربة ديزل درجة أولى وثانية بين الاسكندرية ومرسى مطروح وبالعكس

وحيث تغادر الاسكندرية أيام السبت والثلاثاء والخميس الساعة ١٠و١١ وسيدى جابر

فى الساعة ٢٠و١١ وتصل إلى مرسى مطروح فى الساعة ٥و١٦ وتعود من

مرسى مطروح أيام الأحد والأربعاء والجمعة فى الساعة ٢٠و١٠ وتصل إلى سيدى

جابر فى الساعة ٥و١٥ والاسكندريه فى الساعة ١٥و١٥ وذلك لحين صدور إعلان آخر

المدير العام

سيد عبد الواحد

مطبعة الرسالة